المجلة العربية لدراسات وبحوث العلوم التربوية والإنسانية .. السنة (10) ديسمبر 2024 العدد (37)

==========

تفعيل العلاج بالفنون في مدرسة المستقبل: نحو مقاربة فلسفية

Activating Art Therapy in the School of the Future: Toward a Philosophical Approach

عبدالحق الخيروني

أستاذ زائر بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية في جامعة ابن طفيل بالقنيطرة–المغرب

By : Abdelhak El Khayrouni

Visiting Professor at the Faculty of Humanities and Social Sciences at Ibn Tofail University in Kenitra, Morocco

abdelhak.elkhayrouni@gmail.com

مختبر: الإنسان، المجتمعات والقيم. Laboratory: Human, Societies, and Values.

ملخص

هدفنا من وراء هذه الدراسة إلى إبراز أهم السمات الأساسية التي ميزت كل من الاتجاه المثالي والاتجاه البراغماتي في الفن مع أشهر أعلامهما، باعتبارهما لعبا دوراً طلائعياً في تغيير معالم الفكر الإنساني الكوني بتطعيمه بالعديد من القيم المثلى التي تنبذ العنف والكراهية والتمييز العنصري، لتؤسس لقضايا تجعل النشء يؤمن بأن قيمة الحياة تتجلى في نسج خيوط تجربة الحياة بين الأغيار؛ بغض النظر عن دينهم أو لونهم أو مجال انتمائهم. معتبرين في خضم ذلك أن مستقبل المدرسة يتجلى في الإيمان بأن الحقيقة الفنية تنبثق من الاختلاف كشرط للولوج إلى الائتلاف.

وقد قادنا هذا النقاش الفكري بين هذين الاتجاهين، إلى النظر لمستقبل المدرسة بأنه رهين بتجسيد الاختلاف كشرط للولوج إلى الائتلاف، وذلك في سياق تبني عدة قيم تربوية مثلى؛ كوسيلة لبلوغ غاية العيش المشترك الذي يقوم على التصدي لكل ما يشكل تهديدا للبشرية جمعاء، وذلك انسجاماً مع الغايات الفضلى التي ينشدها الفن المعاصر.

الكلمات المفاتيح: الإنسان، المدرسة، الفن، التجربة، الهجرة.

==========

Abstract:

The aim of this study is to highlight the key features that distinguish both the idealistic and pragmatist approaches in art, with their most prominent figures, considering them as pioneering roles in changing the contours of universal human thought by infusing it with many ideal values that reject violence, hatred, and racial discrimination, to establish issues that make the youth believe that the value of life is manifested in weaving the threads of the shared life experience among all people, regardless of religion, color, or affiliation, as the future of the school lies in the belief that artistic truth emerges from diversity as a condition for accessing coalition.

This intellectual discussion between these two approaches has led us to look at the future of the school as contingent upon embodying diversity as a condition for accessing coalition in artistic matters, within the context of adopting several ideal educational values as a means to achieve the goal of shared living based on confronting everything that threatens humanity as a whole, in harmony with the noble goals sought by contemporary art.

Keywords: Human, School, Art, Experience, Migration

مقدمة

يعد الفن من بين المداخل الكبرى التي تساهم في تعزيز العمل التربوي بعدة قيم فضلى تجعل المتعلم يدرك مزاياه في تجسير العلاقة بين الذوات العاقلة، باعتبارها تميل إلى التذوق الفني والجمالي للعديد من الموضوعات الفنية، نظرا لدورها الطلائعي في أسر الذات بأذواق متعددة تعبر من خلالها على ميولاتها ورغباتها، ولعل ذلك هو ما يتجسد في العديد من الممارسات الفنية التي يقوم بها الإنسان في تعاملاته اليومية قصد سد احتياجاته الأساسية؛ كتلك الفنون المرتبطة بالصناعة، والموسيقى، والرسم وغيرها من الوسائل الفنية التي تأسر الذات الإنسانية وتجعلها في غنى عن سبل أخرى تهدم الوجود الإنساني؛ كالعنف، الاضطهاد، لذلك يأتي الفن بمفهومه الشامل كآلية تقي الفرد والمجتمع مما يضاده ويلاشيه؛ لتنسج عالما مبنيا على عدة قيم مثلى توطد دعائم العيش المشترك.

والحال أن الفن، ليس وليد اللحظة، ولا هو ابتكار جديد من لدن بعض المهتمين بالفن، بل يرجع وجوده إلى مراحل سابقة مع العديد من الفلاسفة والمفكرين الذين قاربوه من زوايا متعددة وجعلوه وسيلة لخدمة قضاياهم في تلك المرحلة. ولما كان الأمر كذلك، فإن لكل مرحلة من مراحل تاريخ تطور الفن قضاياها الخاصة التي تنسجم وروح عصرها، وهذا شيءٌ عادٍ طالما أن المعرفة التاريخية في سيرورة وعطاء دائم يتفاعل مع كل المستجدات التي تعرفها البشرية في ديناميتها.

وانطلاقاً من هذا الوضع الذي عرف، ولازال يعرف ديناميكية في الإبداعات الإنسانية الفنية، فإن الفن بالمرحلة المعاصرة، جاء من أجل إعادة النظر في تاريخ الفن قصد استنباط المفاهيم التي تتماشى مع المقتضيات الحالية، بل تم النظر إلى أن مستقبل المدرسة رهين بمدى تجاوبها مع مشاكل عصرها، وذلك في سياق تقديم أجوبة لها ارتباط وثيق مع الواقع المعيش.

في هذا السياق، تظهر مهمتنا في البحث عن أهم السمات التي ميزت الاتجاهات الفنية التي سادت في تاريخ الفكر الفلسفي عامة، وذلك برصد أثر هذه التحولات الفنية والاجتماعية فيما يتعلق بالتغيرات الجذرية في التجربة الجمالية والتواصل الاجتماعي الذي أحدث تحولًا أساسيًا في الطريقة التي تعمل بها الهجرة والتنقل بين المجتمعات في العالم المعاصر، حيث سنقف على تحليل ومناقشة طبيعة العلاقة التفاعلية بين خلية من المفاهيم التي تشكل حجر الزاوية في الفن الحالي؛ كالهجرة واضطرابات الحياة اليومية، التجربة، التعدد الثقافي، وغيرها من المفاهيم التي لا يمكن سبر أغوار دلالات الفن بمدرسة المستقبل، إلا في إطار تبيان أبعادها ودلالاتها.

فما أهم السمات الأساسية التي تميز العمل الفني بمدرسة المستقبل؟

وما هي أهم الاتجاهات الفلسفية التي قاربت قضايا الفن المعاصر؟

وما طبيعة التحديات التي تعترض تفعيل الفن بمدرسة المستقبل؟

وكيف يمكن تلافيها؟

تحديدات مفاهيمية

يشكل المفهوم الوسيلة الأنجع في تقويم المسارات المختلفة لبنية أي متن ثقافي، وما دام الأمر كذلك، فإنه يمكن الوقوف على تحديد دلالة المفاهيم المركزية، باعتبارها الإطار العام الذي ينبثق منه المعنى المقصود في تحليلنا ودراستنا لسمات مدرسة المستقبل، باعتبارها تتميز عن المدرسة الحديثة في عدة خصائص. فما عمق ذلك في هذه الدراسة؟

-الإنسان Human : يختلف الانسان عن باقي الكائنات الأخرى من خلال مجموعة من المحددات الأساسية التي تجعل تعاملاته أكثر عطاء ونجاعة، فهو كائن يستطيع تنظيم عيشه المشترك على ضوء عدة مبادئ وقواعد فنية تنمي أحاسيسه

وترودها على فعل الخير بذل الشر، والحب بذل الكره، حيث يشير لغة إلى "أحد البشر رجلا كان أو امرأة. مشتق من الإنس على وزن فعلان حيث لا قوام للبشر إلا بإنس بعضهم ببعض. أما اصطلاحاً: فهو الحيوان الناطق"[1]

-المدرسة **School** : تم طرح المدرسة في العصر الحديث؛ كمكان بديل لمجموعة من الأمكنة التي كان يتم فيها التعلم؛ مثل الزوايا، المساجد، وذلك تماشيا مع غايات تنم عن تنمية مجموعة من القدرات والمهارات في المتمدرس قصد استثمارها في مشاريعه المستقبلية، لذلك فهي تشير "حيثما ينمو شيء ما فإن مؤسسا أو منشئا واحدا يعادل ألف مصلح أو مجدد"[2]

-الفن **Art** : يتضمن مفهوم الفن عدة أنواع من الفنون الجزئية؛ كالموسيقى، الرسم، الرقص، الصناعات...وهو مفهوم أضحت تتسع معانيه في الفكر المعاصر نتيجة عدة عوامل متداخلة ومتباينة قادت العديد من الدارسين فيه، إلى إعادة طرح سؤال الغاية من وجوده؛ بمعنى هل تتمثل هذه الغاية في التعبير عما يخالج الذات من عواطف وأحاسيس لا حد لها، أم يقتضي الأمر توجيهه نحو التفاعل مع المشاكل التي تعترض تقدم المجتمع، ومن تم جعل الفن أداة نفعية لتجاوز المعضلات الاجتماعية التي تستفحل بين حين وآخر في المجتمعات؛ على اعتبار أن الفن في جوهره بالمعنى العام هو " جملة من القواعد المتبعة لتحصيل غاية معينة جمالا كانت، أو خيرا، أو منفعة "[3]

-التجربة **Experience** : غالباً ما يتم الخلط بين التجربة والخبرة باعتبارهما لهما نفس الدلالة، في حين لو تأملنا بالآليات الفلسفية في طبيعة العناصر المؤسسة لكل واحدة منهما، لوجدنا اختلافا بينهما من حيث المعنى؛ فالتجربة جزء من الخبرة، والخبرة هي مجموع التجارب الت يراكمها الفرد في مجال محدد؛ فنقول فلان خبير في التحكيم كإشارة إلى كونه مر من عدة تجارب مختلفة المقاصد، فالتجربة بهذا المعنى هي " معرفة أشخاص أو أشياء، تكون مكتسبة عن طريق الممارسة الميدانية ، أي أنها مجموعة من الظواهر التي يعيها العقل على عكس ما هو فطري أو ماتنتجه طبيعة العقل ذاتها، وفي الميدان العلمي ، هي مجموعة اختبارات موجهة لدراسة ظاهرة معينة."[(4)] .كما قد تحيل إلى " مجموعة المعارف أو المدارك المكتسبة بفعل

1- عبدالحق الخيروني "فلسفة الاعلان العالمي لحقوق الإنسان" مجلة القانون والمجتمع، العدد الثاني، 2021، ص130.

2- ديوي، جون " المدرسة والمجتمع" ترجمة أحمد حسن الرحيم، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط. الأولى، 1978 ص 31.

3- جميل صليبا "المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية" دار الكتاب اللبناني، بيروت–لبنان، ج، الثاني، 1982، ص 165 .

4 - Dubois،Jean(1994),dictionnaire de la langue française, Maison Larousse, p : 704

عمل ميداني طويل الأجل مدعوم بعنصر الملاحظة، كما تعني كذلك اختبار أو مجموعة اختبارات منجزة بغرض إثبات ظاهرة معينة أو التحقق منها"[5]

الهجرة Migration: ليس الانسان وحده من يهاجر، فحتى بعض الكائنات الأخرى تهاجر، وللهجرة عدة دوافع تتقاسمها هذه الكائنات، لذلك فهي" تغيير مكان الإقامة، أي تَنَقُّل جماعات بشرية كبيرة من بلد لآخر من أجل الإقامة هناك، وذلك بفعل عوامل اقتصادية اجتماعية أو سياسية. كما تقوم بالهجرة كذلك العديد من المجموعات الحيوانية لكن بشكل موسمي."[6] فهي "عملية تَنَقُّل السكان أو الحيوانات من مكان لآخر بقصد العيش فيه"[7]

ما دامت المفاهيم تشكل الخيط الناظم لأفكار المتن، فما طبيعة هذه العلاقة التي تجمع هذه المفاهيم في المضمون الثقافي؟

دور مدرسة المستقبل في تفعيل العلاج بالفنون

لا شك أن هناك مجموعة من التصورات التي تناولت مسألة الفن في تعدد أبعاده ودلالاته الفلسفية عبر تاريخ الفن، حيث اختلفت الاتجاهات الفكرية وتنوعت بتنوع المبادئ والقواعد التي يستند عليها كل اتجاه فلسفي في مقاربته للغايات المراد جنيها من وراء الفن. وقد كان الفيلسوف النقدي والأخلاقي "إيمانويل كانط" أن عمل على تطوير مبادئ حقل الجماليات في خضم الحوار الذي أقامه مع عالم الجماليات والفيلسوف الألماني "ألكسندر جوتليب بومجارتن"، حيث خصص حيزا مهما من أعماله الفكرية لدراسة عدة قضايا تصب في دلالة وسمات الفن.

غير أنه بالرغم من النتائج المتوصل إليها من الحوار الجدلي بينه وبين " ألكسندر جوتليب بومجارتن –باعتباره مؤسسا للجماليات– حول إشكالية: هل الجمال تجلي للكمال؟ فإن التصور الذي استخلصه هو تصور انعزالي للفن؛ حيث يقوم هذا التصور على أن "الخبرة الجمالية تمتاز عن الخبرة العملية أو خبرة الحياة العادية بأنها لا تهدف إلى أي غاية معينة من غايات الحياة العملية، حتى إن "إيمانويل كانط" وصف الجميل بأنه غائية من دون غاية معينة"[8] ؛ أي أن تمظهرات الجواب عن الإشكال المطروح للنقاش تظهر في اعتبار الجمال تجليا حسيا للكمال، وبالتالي فمهما ادعى الانسان أنه بلغ الغاية

---

[5] -.Augé, Gillon et Hollier Larousse(1968). Nouveau Petit Larousse , Librairie Larousse, p : 410

[6] - Dubois،Jean(1994),dictionnaire de la langue française, Maison Larousse, p : 1158

[7] - Augé, Gillon et Hollier Larousse(1968). Nouveau Petit Larousse , Librairie Larousse, p : 654

[8] -ديوي، جون " الفن خبرة" ترجمة زكرياء ابراهيم، المركز القومي للترجمة، ط. جديدة 2011، ص و.

النهائية من تذوقه لموضوع فني ما، فإن هذا التذوق يرافقه إحساس يبهر الذات ويجعلها أسيرة له؛ فالموضوع يبقى واحداً، لكن طرق الوصول إليه تختلف باختلاف زوايا النظر؛ فالموضوع الفني غاية في ذاته والوسائل المتبعة في الولوج إليه متعددة ومختلفة باختلاف مقاييس الذوات العاقلة والمفكرة التي تستطيع تذوق الموضوع الجميل بطرق فنية.

تبعا لذلك، يبدو أن فهم "إيمانويل كانط" للمسائل الفنية قد بني على ثنائية الذات والموضوع؛ فهناك الذات العارفة وموضوع المعرفة، بيد أن هذا الفهم قد حجب رؤيا "إيمانويل كانط" عن العديد من المميزات التي تعزز من فهمنا للواقع المعرفي، وكذا محاولة إيجاد خط ثالث يجمع بين الذات العارفة وموضوع المعرفة والواقع الذي يعرف انسيابية وديناميكية في تغير معنى الموضوعات الفنية بفعل المقتضيات والأحداث المتحولة.

تلكم إذن بعض الانتقادات التي اتخذها مجدد الاتجاه البراغماتي "جون ديوي" سلاحا خارقا في دحض المبادئ والقواعد التي شيد عليها الفيلسوف الألماني قيم الاتجاه المثالي في الفن، حيث أن انتقاد "جون ديوي" لـ "إيمانويل كانط"، لم يأت من فراغ أو من محض الصدفة، وإنما جاء في سياق رفضه لفكرة أن يكون الفن بعيدا عن الواقع المعيش؛ أي أن مقاربة الفيلسوف الألماني" إيمانويل كانط" بالنسبة لـ "جون ديوي" ظلت تسبح في عالم متعالي عن الواقع، في حين يقتضي الأمر أن يكون للفن آثار في ممارستنا العلائقية كذوات عاقلة تعي محددات الغاية من وجودها؛ إما باقتراح حلول لمشاكل مستفحلة في المجتمع الحاضر، أو السعي للوصول إلى قيم تكون بوصلة المجتمع في المستقبل؛ فالفن بهاتين السمتين يكون أداة لترويض المتلقي(متمدرس، طالب...)على حب الخير ودرء الشر له ولمن سيأتي بعده من أجيال، كما أنه أداة لرسم معالم المستقبل على ضوء تجاوز قيم متهالكة تناساها الزمن، والترحيب بأخرى تستطيع التعايش مع كل المستجدات؛ إنه الفن الذي يقوم على فعل توعية النشء بمقاصد الحياة وليس تغريبه عن محددات الوجود الاجتماعي الأصيل.

وانطلاقاً من هذه الطموحات المنشودة عند العديد من الرواد والدارسين في الفن بالفكر المعاصر، نجد "جون ديوي" بعد نقده لـ "إيمانويل كانط" يطرح بديلا يتجلى فيما أسماه بـ"مدرسة المختبر" بوصفها مكانا لاكتساب المبادئ الفنية والجمالية، حيث تتحالف فيها دراساته الدورية في علم الجمال مع اهتمامه بالخيال، وفي التجربة والطبيعة والبحث عن اليقين، ارتأى له أن قضايا الفن هي التي يكون فيها النشاط أو التعبير عن الفن في حد ذاته جوهر كل سلوك، وهنا نلمس تقربه لما هو عملي في تحديد ملامح الفن الهادف، حيث كتب في منهجه الدراسي عن ذلك قائلا "إن التجربة الفنية والجمالية هي تجربة نهائية(...) بموجبها يتعامل الفن مع غايات الخير المثالي ويوضح ما هو مرغوب فيه"[9].

[9] - Jay martin "The Education of john dewey" Publisher Columbia Universtiy Press, 2003, p : 401.

إن المتأمل في تدعيم "جون ديوي" لمقتضيات الفن بالتجربة، سيجد أنه يميل إلى الفنون البصرية بحكم أن لها صلةً مباشرة بالواقع، بل هي منطلق تصوير الواقع ونقله إلى التجربة بـ"مدرسة المختبر" بحيث "كان يعتبر الفن أسمى تعبير عن الخبرة"[10]. لما كان الأمر كذلك، ذهب إلى توسيع معالم التجربة بكونها المكان الأرحب ليقيم كل الموضوعات الفنية المتنوعة والمختلفة. وفي هذا الصدد يقول " يكمن الفن في التجربة؛ سواء كان أدبا، أو موسيقى، أو رسماً"[11].

والحال أن المكان الذي تقام فيه التجربة في حد ذاته يتضمن خصائص فنية وجمالية تغذي الروح وتجعلها تنسج خيوط التجربة الفنية استنادا إلى سمات تقود إلى كمال الخبرة بحيث تصير التجربة شرطا لبلوغ الخبرات الفنية والجمالية في كل مكان تقام فيه التجارب(الموسيقى، الصناعات...) لذلك يعتبر "جون ديوي" "الفن هو اكتمال الخبرة العادية الموجودة في كل مكان"[12]. فأفضل فن هو ذلك الذي يرجع إلى التجربة؛ وأفضل تجربة مكتملة هي تلك التي راعت في جوانبها أشكالا فنية وجمالية؛ فقيام الشرط يظل رهينا بالمشروط.

إذن فالتجربة في حد ذاتها جمالية، والفن هو اكتمال الخبرة الجمالية، كما أن الخبرة تتشكل من الأنشطة التي يمارسها الانسان في مجالات الحياة؛ كالصناعة، الرسم، السياسة... باعتبارها مجالات تؤسس لاكتمال الخبرة. فالفن بهذا المنحى التصاعدي، لا يعكس السيرة الذاتية للصانع، أو رجل السياسة، لأن بذلك الفعل سنسقط في ثنائية الذات والموضوع التي كانت تحصر الحقيقة الفنية في مجال ضيق لا يحتمل الرؤى المتعددة، ولعل ذلك هو ما تجاوزه "جون ديوي" بدعوته لربط المجال الفني بالواقع المعيش.

وتدعيما لهذه السمات التي نادى بها جون ديوي، نجده ذهب إلى تطوير سيكولوجية الخبرة في الطبيعة البشرية من أجل البحث عن اليقين؛ على اعتبار أن الاتجاه البراغماتي في مجال الفن معه هو نظرية للمعرفة، وطريق للتحقيق في الأنشطة الفنية التي يقوم بها الانسان في عالمه اليومي، ويُكون عنها تجربة نوعية بحد ذاتها. يقول "جون ديوي" عن أهمية التجربة "إن لها قيمة ورؤية تشكل بواسطتها إطارا مرجعيا للعقل في تشكيل الخبرة"[13].

وبالتالي فالغاية من هذا الميل للخبرة ليس هو تبيان نواقص المبادئ الفنية التي أقيم عليها الاتجاه المثالي مع "إيمانويل كانط" فقط، وإنما هو المساعدة على تحقيق التكامل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي المنظم، ومكمن ذلك أن الكتابة

[10] -ibid, p :403.
[11] -ibid, P :404
[12] -ibid, p :404
[13] - ibid, p :404

عن الفنون هي بمثابة "استعادة الاستمرارية بين أشكال الخبرة المصقولة والمكثفة التي تمثل أعمالًا فنية وأحداثاً يومية وأفعالاً ومعاناة معترف بها عالميًا على أنها تشكل تجربة"[14].

فالفن وفق هذه الشاكلة، لا يحيل إلى كونه تقليداً واستنساخاً للماضي المسجل في التاريخ، وإنما هو إبداع وتطوير للقضايا حتى تنسجم وروح العصر؛ أي أنه ليس فنا من أجل الفن فقط، بل إنه صفات يتم تناقلها بين الفنانين وتجديد ملامحها وجعلها متاحة للآخرين قصد استثمارها في أنشطتهم الفنية التي تنسجم وروح عصرهم، و"جون ديوي" لا ينكر في هذا الصدد أن الفن هو التعبير الكامل عن الحياة الانسانية بقوله " إذا كان الفن نابضًا بالحياة، فإن المجتمع والاقتصاد والفكر والعلم يمكن أن يزدهرا أيضًا، لأن الفن يوفر الطاقة التي من خلالها يمكن لهذه الأنشطة أن تنبض بالحياة"[15].

إن غياب الفن في العالم سيكون عبارة عن عالم مضطرب وتغير بلا نتيجة، أو عالم مكتمل وهو ميت؛ إن الفن يحافظ على تطور الحياة وتماسكها من خلال إبداع وتغذية المزيد من الخبرات المتواصلة بالعديد من السمات الفنية التي تنبت كل يوم فنا يحاكي الظواهر المستفحلة في المجتمع، يقول "جون ديوي" في هذا السياق "الفن ليس هو القصيدة، أو اللوحة، أو المبنى؛ إنه الإدراك الذي يتجلى في هذه التجليات الملموسة، وذلك الإدراك الذي يمتد إلى ما هو أبعد من الموضوع الملموس"[16]

والحق أنه عندما نتكلم عن الفن، فإننا نشير إليه كنتيجة لنشاط تفانى فيه فنان وأتقن أدواره من خلال تحديد مدخلات النشاط ومخرجاته؛ أي أن الحديث عن سمات الفنان هو حديث عن مجموعة من الضوابط الواجب توفرها فيه، حتى نستطيع ختام نشاطه برسائل تجعل الذات المتذوقة لفنه في تواصل دائم مع البيئة المعاشة، حيث يقر "جون ديوي" في هذا السياق " إن الفنان لا يفكر، في حين أن الباحث العلمي لا يقوم بشيء آخر سوى التفكير. والواقع أن النشاط الفني لا يخلو من التفكير الدائم حينما يمارس الفنان عمله، وهو لا يختلف عن النشاط العملي، من حيث أن كليهما يهدفان في النهاية إلى تحقيق توافق بين الإنسان وتواصله مع بيئته"[17]

لكن إذا ربطنا عمل الفنان بالتعليم؛ بحكم أن تلك القواعد الفنية يتم اكتسابها من مجال التعليم، فإننا قد نجد تفاوتاً من حيث الكفاءة الفنية لدى الفنان بفعل العديد من العوامل المتداخلة والمتباينة، وهو ما يشير إلى افتراض خطوات تسيج

---

[14] - ibid, p :404
[15] - ibid, p :405
[16] - ibid, p :405

[17] --المرجع السابق، ص ح

العمل الفني وتقيه شر شتات المعنى وضياعه. أكيد أن هذا التسييج لا يعني نبذاً ورفضاً للتعددية الثقافية، وإنما هو تكريس لها من داخل الأبعاد التاريخية والسياسية للديمقراطية الثقافية. فالمناهج النقدية للتعليم، والمناهج متعددة التخصصات، لم يتم إيلاؤها سوى القليل من الاهتمام للأدوار الجوهرية التي يمكن أن يلعبها في تناسل الأفكار المختلفة وتعايش أصحابها بغض النظر عن دينهم أو لونهم أو مجال انتمائهم، لذلك تكمن "وظيفة الفن في قدرته على توسيع وتكثيف التواصل"[18].

مقتضى هذا القول أن الفن لا يجب أن يكون أداتا لتكريس العنف والكراهية والانغلاق على الذات في التعددية الثقافية، وإنما يجب أن يكون وسيلة لتحقيق التعايش بين جميع الناس، وذلك وفق قيم مثلى تنطلق من الذات الإنسانية وتعود إليها في تشييد العالم الخاص بها، وباقي العوالم الأخرى مع باقي الأغيار.

هكذا يتضح أن الفن تتنازعه اتجاهات فكرية تتراشق فيما بينها بالأفكار لتنسج لنا حقيقة مبنية على الاختلاف الذي هو طريق لتحقيق الائتلاف؛ فبين الفكر القاري الذي يدافع عنه "إيمانويل كانط"، والفكر الأنجلوساكسوني الذي يؤيد معالمه "جون ديوي" من داخل مبادئ الاتجاه الراغماتي، يوجد معنى في مبنى هذا التعدد الثقافي، بحيث يجعل الروح البشرية في بحث دائم عما يجعلها في تعالق فني وجمالي مع البيئة التي ينتمي إليها، ويطمح إلى تجديد ملامحها في الحاضر والمستقبل؛ سواء بشكل فردي أو بشكل جماعي يتم تعزيزه من خلال الممارسات الثقافية للتبادل والتعاون الفكري والفني بين مختلف المجموعات العرقية دون التضحية بهويتها الخاصة، وهذا أمر مرغوب فيه ما دام يحمل غاية طيبة في ذاته، وهي أن يصبح الكل جزءاً، والجزء كلاً.

أ– التحديات

تختلف وتتعدد التحديات التي تعترض تفعيل الفن بمدرسة المستقبل، وهذا أمر عادٍ طالما أنه يخلق هاجساً ورغبة في تحدي التحدي نفسه، وهنا سنحاول قدر المستطاع التوقف على إحدى الصعوبات التي أضحت من قضايا الساعة، ألا وهي مسألة الثورة العلمية وما أحدثته من مفارقات عجيبة ليس في مجال الفن فقط، وإنما في جميع المجالات التي ينشط فيها الإنسان أثناء رغبته في تلبية احتياجاته الضرورية والثانوية؛ فالحديث عن هذه المسألة هو حديث عن الطريقة التي أصبحنا ندير بها علاقاتنا الفنية متى قادنا ذلك إلى الوصول للمعلومات ومحاولة تخزينها، ومن ثمة استثمارها فيما بعد بشكل إيجابي بحياتنا المعاشة، ولكنها شكلت في مقابل هذا الطرح تحدياً للطرق التي نرى ونستخدم بها كل الفنون. و من الممكن أن تكون هذه الثورة مؤشراً على الديمقراطية الثقافية من حيث الولوج للمعرفة كما أشرنا سابقاً، وسعياً للرقي

[18] - BURCU DOGRAMACI AND BIRGIT MERSMANN" HANDBOOK OF ART AND GLOBAL MIGRATION Theories, Practices, and Challenges " Publisher De Gruyter, 2019, P : 40.

بالبشرية جمعاء، وبدلاً من ذلك، يمكن النظر إليها باعتبارها انزلاقاً لا نهاية له؛ على اعتبار أنه "منذ بداية الحداثة، تابع الفنانون وأمناء المعارض والمنظرون هذه القضية عبر أحد مسارين متعارضين تمامًا. فمن ناحية، هناك الإدعاء بأن جمال الفن ليس له وظيفة سوى سعيه وراء المنطق المستقل والداخلي للمتعة المشاهدية النزيهة. ومن ناحية أخرى، هناك إدعاء واسع الانتشار أيضًا بأن الفن يكتسب الجمال من خلال إخضاع الشكل للوظيفة، بحيث يصبح تعبيرًا"[19].

يبقى هذا مجرد تخمين قابل للتحقق ما لبثت الثورة العلمية المعاصرة تحمل في طياتها نتائج مبهمة لا يمكن الجزم فيما إذا كانت مدخلاتها ومخرجاتها موضوعية بشكل قطعي. وعليه، ففي رد فعل على مثل هذه التخمينات والألغاز التي تؤرق تفكير الذات البشرية في انعكاسات استثمار الثورة العلمية في الفن، نجد أن الفيلسوف "جاك رانسيير **Jacques Rancière** " قد قدم حجة تقوم على النظر إلى "الحياة بكونها الفكرة التي تسمح لنا بالتغلب على تلك التناقضات"[20]. مضمون ذلك أن النظرة للحياة تختلف باختلاف الوسائط الثقافية (سوسيولوجية، قانونية.....)؛ لا سيما في ظل الهجرة والعولمة وتداعياتهما على الوجود الانساني عامة، باعتبارهما من التحديات الرئيسية التي تطبع ظاهرة التحول الاجتماعي في القرن الحادي والعشرين.

ولعل تداخل هذه الأحداث التي تكون مرتبطة تارة بالثورة العلمية، وتارة أخرى ببعض القضايا الأخرى كالهجرة والعولمة، جعلنا أمام جملة من التساؤلات، نوجز أهمها وفق الشكل التالي:

هل يتم التفاوض على الهويات الفنية ومفاهيم الهوية (الاجتماعية والسياسية والدينية والعرقية والجنسية...) عبر الثقافات من خلال عمليات الهجرة؟ ما مدى أهمية التبادلات الفنية ورحلات الأفكار والمفاهيم في عقد العولمة المعلن؟ وكيف يتأثر سوق الفن العالمي بهجرة العمالة؟ كيف يمكن فك رموز البقايا الثقافية والبصمات والطبقات التي أنتجتها الهجرة العمالية أو الحفاظ عليها؟

يقودنا الجواب على هذه التساؤلات ـ و مثلها كثير ـ إلى التأكيد على ضرورة أن يعمل المنهج التعليمي على استكشاف الروابط الخارجية والمفاهيم الداخلية بين ممارسة الفن وتاريخه؛ وكذا الهجرة العالمية من وجهات نظر مختلفة؛ من بينها تاريخ الفن ووسائل الاتصال والتواصل وعلم الاجتماع، والنظرية السياسية...، باعتبارها وجهات تطرح عدة تحديات أمام الفن والإعلام في تصوير الحقيقة كما هي من أجل مواجهة اضطراب الزمكان والبنية المفاهيمية الناتجة عنه؛ أي أن التصوير الإعلامي لعمليات الهجرة، نتجت عنه ثنائيات في فهمنا الإنساني، حيث يتم إزاحة الثقافة السائدة في المجتمع

[19] -ibid, P :40.
[20] -ibid, P :40.

بزعزعة استقرار فهم المهاجر للمحتوى الفني، وذلك من خلال تصويره ككيان منفصل عن عدة مفاهيم تابثة تتعلق بالوجود الأصلي، فيتم تركيز التصوير الفني على نزوحه وصيرورته. وبذلك "تُظهر الحركة العابرة للحدود الوطنية الحالية في الإنتاج الفني وأسواق الفن أن نظام تاريخ الفن يواجه تحديات كبيرة فيما يتعلق بعمليات الهجرة التاريخية والمعاصرة المعقدة، وعليها أن تعيد النظر في معاييرها ومفاهيمها"[21].

هكذا يتضح أن الحديث عن أدوار الفن في لم شتات البشرية جمعاء على مقاصد فضلى، تعترضه عدة إشكالات ترتبط أحيانا بعوامل تهم العولمة وهجرة الفنانين ووضعياتهم التي يتم التأثير عليها بعدة محددات، وأحيانا أخرى بانعكاسات الثورة العلمية التي تحمل بدائل للمحتوى الفني الذي يقدمه الفنان للمتلقي(الخيال العلمي، الذكاء الاصطناعي...)، وبالتالي، فإن إمكانية بسط مقاصد الفن على المستوى الكوني، يظل أمرا محفوفا بمجموعة من المفارقات التي تدفعنا إلى تقديم حلول ممكنة. فكيف يمكن معالجة هذه المشاكل الفلسفية والفنية؟

ب–الحلول

ردًا على بعض التحديات التي تعترض تفعيل الفن بمدرسة المستقبل، نقترح بعض الأساليب الديناميكية الجديدة لدراسة وجهات النظر المختلفة، وذلك في إطار الحاجة إلى إعادة صياغة مفهوم مناهض لكل الأشكال المكرسة للتمييز العرقي العابر عبر القارات، بحيث يسير الفن بمثابة استجابة لمختلف التفاعلات التي يقوم بها الناس في شتى الدول والمجتمعات؛ على اعتبار "أن فكرة الجماليات المهاجرة تعمل على الاستجابة لعمليات الصيرورة المختلفة التي تثيرها حركة الناس والشعوب: التجارب التي تمر بمرحلة انتقالية وكذلك انتقال التجربة نفسها إلى طرائق جديدة، وعمل فني جديد، وطرق جديدة للعيش"[22]

ونظرًا لأهمية الممارسة الفنية التي يقوم بها رجالات الفكر والثقافة والإعلام الذين ينشطون بأنفسهم في الانتاج الفني بمعناه العام، فإنه يقتضي تكريس القيم التي تضمن العيش المشترك؛ كل من موقعه الخاص؛ مما يسمح لهم بالتأمل وبناء النقد الذاتي أولا، ثم نقد الآخرين الذي يطرحون قيما تهدم هذا العيش. فتظافر جهود الجميع في تبني المنظور الجمالي والفني للمهاجرين كممارسين أو متلقين للفن، سيمكن من تجاوز بعض المفاهيم المكرسة للتمييز. فعلى سبيل الاستشهاد، لا يجب تقديم مشاهد إعلامية وتعليمية تقف عائقا أمام بسط الفن في غاياته المثلى التي تهم الانسان. ولما كان الإنسان هو مركز الكون، فإنه يتطلب البحث في السبل التي توحده بدل تلك التي تفرقه.

[21] -ibid, P : 10.
[22] - ibid, P : 11.

ويعتبر المنظور الجمالي للمهاجرين الممارسين للفن، جزءاً من عملية "تقديم الفنون التشاركية، وأبحاث العمل التشاركي، والمحاكاة العرقية كمنهجيات شاملة لدمج أصوات وصور المهاجرين واللاجئين وطالبي اللجوء لحشد التغيير"[23]. لما كان الأمر كذلك، فإن الفن وفق هذا المنحى يسير كشكل مستقل ومقاوم لكل الأشكال التي تقف سدا منيعا أمام إعادة التصور والتجديد على العوالم الاجتماعية؛ فعالم اليوم لم يعد آمنا بفعل العديد من العوامل المتداخلة التي توجد الهجرة على رأسها، حيث تؤكد نظرية الهجرة على "أن الهجرة العالمية المعاصرة اتخذت شكلاً شبكيًا جديدًا. بهذا المعنى تتميز الهجرة بكونها قوة مضطربة أو حركية، ويُنظر إليها على أنها تعمل على طول العقد في شبكة معقدة من التنقل"[24]

ففي سياق المهاجرين والحركات عبر الحدود، يندمج الماضي بالحاضر لتتولد الرغبة في التأسيس للمستقبل، ولو على حساب ما حققه الفن عبر قيم سجلت في تاريخه. وبالتالي فإن "جمال الفن لا يتم تحديده بمعايير داخلية مستمدة من الاستقلال الجمالي أو المنفعة السياسية، ولكن من خلال الاقتران أو التنشئة الاجتماعية التي تحدث من خلال التواصل، بحيث يتم الجمع بين الفن والحياة معًا في اقتران غير مقيد بين المنفعة الاجتماعية والمتعة الحسية"[25].

والحال أن هذا النوع من الحلول المقترحة، لا يشير إلى كونه انتصارا لنوع من الفنون ذات الصبغة العالمية، أو محاولة لثني نوع من أنواع أخرى في وجودها ضمن فنون العالم؛ على اعتبار أن هناك من يدعي أن الأساليب الأكثر شيوعًا لربط الدراسة بالفن، هي تلك التي تكرس الطبقية داخل المجتمعات؛ أي أن إعطاء الأولوية لفن على حساب آخر، سيفقد الفن خاصية تعزيز الفهم الثقافي الشمولي، نظراً لكون هذا النوع من الأساليب سيجعل المصنوعات الفنية الثقافية فارغة ومجردة من الهوية التاريخية والاجتماعية للخصوصيات المتعددة.

ولعل ذلك هو ما نلاحظه حينما نتأمل أغلب الأساليب الفنية التي تميل اليوم إلى إدراج الفن من كل ثقافة تحت اهتمامات رسمية أو تقنية ضيقة، والتي هي في حد ذاتها مستمدة من الأطر الجمالية الأوروبية الحداثية، وهذا هو ما نبه إليه رانسيير **Rancière** بإقراره "أن هذا ليس شكلاً من أشكال التوحيد الذي يذوب فيه الفن والحياة في كل منهما، من الاضطرابات العالمية إلى فضاءات العالم(...) ولكن التوافق الذي يتم تمثيله على أنه "تكميلي"، يؤدي إلى مساحة مفتوحة على الدوام"[26].

---

[23] **-ibid, P : 11.**
[24]**- ibid,, p :11.**
[25] **-ibid, P : 40.**
[26] **-ibid, PP :40-41.**

تلتقي نظرية "رانسيير" في جوهرها مع ما أقره مجدد مبادئ وقواعد الاتجاه البراغماتي "جون ديوي" حينما قال "والفن– حينما لا يعود الإنسان يخاطب الإنسان، بل الإنسانية– قد ينطق بكلمة حق، ينطق بها بطريق غير مباشر، وذلك بأن يفعل الفعل فتتولد الفكرة"[27]

وبالنظر إلى أهمية التعليم في تجسيد الفن والتعريف بأدواره داخل المجتمع، فإنه يقتضي التركيز في المقام الأول على إصلاح المناهج الدراسية، حيث دعا تطبيقها الأوسع إلى بذل جهد شامل لإصلاح المدارس باستخدام استراتيجيات مثل أساليب التدريس التي التركيز على الطالب، وإشراك المجتمع في صنع السياسات وتعزيز التعليم والتوزيع العادل للموارد من أجل زيادة التكافؤ لمجموعة من المجموعات الثقافية والعرقية والاقتصادية. وكما أشارت المنظرة التعليمية ، في دحضها لسمات التعددية الثقافية التي توقفنا عندها سابقا، "كريستين سليتر" "كان التعليم المتعدد الثقافات يرتكز دائمًا على رؤية المساواة وكان بمثابة موقع تعبئة للنضال داخل التعليم"[9].

المغزى من ذلك، هو أنها تشكك في مصداقية القيم التي تقوم عليها التعددية الثقافية بحكم أنها كانت خاصية إشهارية في المظهر– إن جاز التعبير، لكنها تخفي أغراضا أخرى في الجوهر، وهي تغيير هيكل السلطة في المجتمع الأوسع من أجل تعزيز التمكين الاجتماعي والسياسي.

فبالرغم من خلق نماذج ثقافية متعددة في السابق ضمن المناهج التعليمية من أجل تجسيد الأدوار التي يمكن أن يلعبها الفن في تحصيل عدة قيم كونية، فإن مزايا هذه الخطة كانت موجهة نحو خلق تفاوتات اجتماعية واقتصادية تهم فئة بعينها دون مراعاة لظروف باقي الفئات الأخرى ولو بحدة معينة، ولعل ذلك هو ما قد يدفعنا إلى التساؤل عن المغزى من وجود الفن ضمن الوسائط الاجتماعية؛ بما فيها التعليمية، إن لم يكن يهدف إلى تغيير الظروف الاجتماعية والسياسية للمجتمعات؛ فهناك فرق بين فن يحمل في طياته القدرة على استكشاف وإيجاد حلول لألغاز محيرة بطرق فنية، وبين فن يعمل على التهجين الثقافي.

وأستطيع أن أجادل في هذا الصدد بأن، ما يفتقده تعليمنا الفني في الوطن العربي متعدد الثقافات اليوم، هو النهج الذي يربط بين التجربة اليومية والنقد الاجتماعي والتعبير الإبداعي الخلاق الذي يستطيع التركيز على القضايا والأفكار التي يهتم بها الطلاب والمثقفون عامة، والتي لها صلة بسياق الحياة في العالم، إذ يصبح آنذاك الفن وسيلة حيوية للتأمل في طبيعة الوجود الاجتماعي ورغباته وحاجاته التي تضمن له البقاء على قيد الحياة.

---

[27]– ديوي، جون " الفن خبرة" ترجمة زكرياء ابراهيم، المركز القومي للترجمة، ط. جديدة 2011، ص 582.

خاتمة

يفهم مما قيل سابقاً أن الفن المعاصر جاء استجابة لنداء التفاعل مع مجموعة من القضايا التي أضحت تكرس الطبقية في المنتظم الدولي، حيث تمت إعادة النظر في سمات تاريخ الفن والتعليم متعدد الثقافات قصد سد هذه الفجوة التي أحدثتها الاتجاهات الفكرية والفنية التي سادت في العصر الحديث، وتم توارثها مع بعض الدارسين في الفكر الفني المعاصر.

إن البحث في الغاية من وجود الفن، حتم علينا تسليط الضوء على دوره ضمن نهج نقدي للتعليم متعدد الثقافات؛ أي نهج ليس بالمعنى الذي تم توظيفه في السابق من أجل تحصيل مصالح نفعية لفئة على حساب فئات أخرى، وإنما من خلال نهج يفكر في المشاكل الاجتماعية التي تتسع لتشمل كل القضايا التي أضحت تشكل خطرا على تماسك البعد العلائقي بين الذوات العاقلة، حيث يصبح التعليم المبني على ضوابط ثقافية جديدة أمرا لا مفر منه في تحصين مستقبل المدرسة؛ كالمساءلة النقدية، تقبل الآخر، وغيرها من الضوابط التي تشيد نهجا دراسيا مناهضا للعنصرية بين بني البشر ومؤسسا للديمقراطية الحقة التي تبسط معالمها فيما هو مادي وملموس، وليس فيما هو متعالي عن الواقع المعيش، مما يوفر أساسًا نظريًا وموارد عملية للتنفيذ الأمثل لكل المسائل التي ينشدها الفن في طياته.

المراجع

- عبدالحق الخيروني.(2021)، "فلسفة الاعلان العالمي لحقوق الإنسان": مجلة القانون والمجتمع، العدد الثاني.
- ديوي، جون(1978) " المدرسة والمجتمع" ترجمة أحمد حسن الرحيم: دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت–لبنان، ط. الأولى.
- جميل صليبا (1982)،"المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية": دار الكتاب اللبناني، بيروت–لبنان، ج، الثاني.
- ديوي، جون(2011). " الفن خبرة" ترجمة زكرياء ابراهيم، المركز القومي للترجمة، ط. جديدة 2011، ص و.

- Dubois،Jean(1994),dictionnaire de la langue française, Maison Larousse.-
-Augé, Gillon et Hollier Larousse(1968). Nouveau Petit Larousse , Librairie Larousse.
- Dubois،Jean(1994),dictionnaire de la langue française, Maison Larousse.
- Augé, Gillon et Hollier Larousse(1968). Nouveau Petit Larousse , Librairie Larousse.
- Jay martin(2003). "The Education of john dewey" : Columbia Universtiy Press, .
- Burcu dogramaci and Birgit Mersmann(2019) handbook of art and global migration Theories, Practices, and Challenges " : De Gruyter.